مجلـــة آفاق للدراسات الإنسانية والتطبيقية كلية الآداب والعلوم الإبيار- جامعة بنغازي
Afaq Journal for Human and Applied Studies Faculty of Arts and Sciences ALAbyar University of Benghazi
ISSUE 3 March 2025 16 رمضان 1446 العـــدد: الثالث مـــارس 2025

الدور الحربي والجهادي للحركة السنوسية في مقاومة الاستعمار الفرنسي في تشاد

أ. المبـروك بشيـر القـذافـي [1]
1.محاضر مساعد بقسم التاريخ كلية الآداب والعلوم سلوق

تاريخ الاستلام: 12/10/2024 | تاريخ القبول: 13/01/2024 | تاريخ النشر:16/03/2025 | DOI: https://doi.org/10.37376/ajhas.vi3.7245

الملخص:

تؤكد المصادر التاريخية القديمة، عمق العلاقات الليبية التشادية، رغم وجود الحاجز الصحراوي، وتوطدت هذه الصلات مع انتشار الإسلام في شمال وجنوب القارة الأفريقية. فقد لعبت القوافل التجارية دورًا حيويًا في نقل البضائع والثقافة الإسلامية واللغة العربية بين الحوضين. تسلط هذه الدراسة الضوء على دور الحركة السنوسية في مقاومة الاستعمار الفرنسي في تشاد خلال العقد الأول من القرن العشرين، معتمدة على المنهج التاريخي السردي والتحليلي. أن هجرات قبائل ليبية عديدة إلى شمال تشاد، هربًا من الظلم العثماني، ساهمت في تعزيز الروابط بين الشعبين قبل دخول الاستعمار. وقد وجدت الحركة السنوسية، التي انتقل مقرها إلى منطقة قرو التشادية، دعمًا كبيرًا من هذه القبائل وأهل البلاد. ووقفت الحركة سداً منيعًا أمام التوسع الفرنسي، وشارك رجالها في معارك عنيفة في أنقوري وبئر علالي وغيرها. وخلصت الدراسة إلى أن الحركة السنوسية نجحت في توحيد جهود المقاومة الوطنية التشادية، ودعمتها بالسلاح والرجال، مؤكدة بذلك دورها المحوري في ربط شعوب شمال وجنوب الصحراء وتحدي الاستعمار.

الكلمات المفتاحية: (السنوسية – الدور الحربي – الاستعمار – مقاومة)

The military and jihadist role of the Senussi movement in resisting French colonialism in Chad

Mr. Almabruk Bashir Gaddafi.[1]
1-Assistant Lecturer, Department of History, Faculty of Arts and Sciences, Salouq, Almabruk.almsoki@uob.edu.ly

Abstract

Ancient historical sources confirm the depth of Libyan-Chadian relations, despite the existence of the desert barrier, and these ties were strengthened with the spread of Islam in the north and south of the African continent. Trade caravans played a vital role in the transportation of goods, Islamic culture, and the Arabic language between the two basins. This study sheds light on the role of the Senussi movement in resisting French colonization in Chad during the first decade of the twentieth century, using a narrative and analytical historical approach. The migrations of many Libyan tribes to northern Chad, fleeing Ottoman oppression, contributed to strengthening the ties between the two peoples before the advent of colonization. The Senussi movement, which moved its headquarters to the Chadian region of Garou, found great support from these tribes and the people of the country. The movement stood as an impenetrable barrier to French expansion, and its men participated in fierce battles in Ankori, Bir Alali, and others. The study concludes that the Senussi movement succeeded in unifying the efforts of the Chadian national resistance, supporting it with weapons and men, thus confirming its pivotal role in connecting the peoples of the northern and southern Sahara and challenging colonialism.

Keywords: Senussiyya - military role - colonialism - resistance

Copyright©2024 University of Benghazi.
This.open.Access.article.is Distributed under a CC BY-NC-ND 4.0 licens

Scan QR & Read Article Online.

المقدمة:

تتجاوز جذور العلاقات الليبية التشادية آلاف السنين، ممتدة إلى عصور ما قبل التاريخ حيث كانت القبائل البدوية تتنقل بحرية بين الواحات والصحاري الشاسعة التي تفصل البلدين. لم تكن الصحراء حاجزاً بل جسراً للتفاعل الثقافي والتجاري بين الشعوب التي سكنت هذه الرقعة الجغرافية الواسعة.

مع انتشار الإسلام في شمال أفريقيا، وصلت الدعوة الإسلامية إلى حوض بحيرة تشاد، حاملة معها تعاليم الدين الجديد وقيمه السمحة. ساهمت القوافل التجارية التي كانت تجوب الصحراء في نقل العلماء والدعاة، مما عزز الروابط الدينية والثقافية بينها، فكانت القوافل تحمل معها ليس فقط البضائع والتوابل، بل أيضاً المعرفة والحكمة.

وشهدت المنطقة في العصور الوسطى ازدهاراً تجارياً وثقافياً، حيث كانت مدن واحات مثل فزان وكوادي تعتبر محطات مهمة على طريق القوافل التجارية التي تربط بين شمال أفريقيا وساحل الخليج. وقد ساهم هذا التبادل التجاري في تنوع الثقافات وتبادل الخبرات بين الشعوب.

كما شهدت المنطقة هجرات متعددة للقبائل العربية والبربرية، مما ساهم في مزيد من التمازج الثقافي والسكاني. وقد استقرت العديد من هذه القبائل في شمال تشاد، واندمجت مع السكان الأصليين، مما أدى إلى نشوء مجتمعات متعددة الأعراق والثقافات.

وعندما ظهرت الحركة السنوسية في ليبيا، وجدت في شمال تشاد تربة خصبة للتوسع، حيث لاقت دعوتها قبولاً واسعاً من قبل القبائل العربية والبربرية التي كانت تسكن المنطقة. وقد لعبت الزوايا السنوسية دوراً مهماً في نشر التعليم وتعزيز القيم الإسلامية في المنطقة.

ومع بداية القرن العشرين، واجهت المنطقة تهديداً جديداً يتمثل في التوسع الاستعماري الفرنسي. وقد قاومت الحركة السنوسية، بدعم من القبائل الليبية والتشادية، هذا التوسع بكل ما أوتيت من قوة، مما أدى إلى صراعات طويلة ومريرة.

وبالرغم من التحديات التي واجهتها العلاقات الليبية التشادية على مر التاريخ، إلا أن الروابط الثقافية والتاريخية التي تجمع الشعبين ظلت قوية، مما يشير إلى عمق هذه العلاقات وتأثيرها على حاضر ومستقبل المنطقة.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى:

- تأكيد عمق العلاقات التاريخية بين الممالك التشادية مع القبائل الليبية.
- إلقاء الضوء على دور المقاومة الوطنية التشادية في مواجهة الاستعمار الفرنسي بالتعاون مع الحركة السنوسية.
- توضيح مجالات التعاون في المحاور السياسية والاقتصادية والثقافة والاجتماعية بين المقاومة الوطنية التشادية والحركة السنوسية أثناء مقاومة المستعمر الفرنسي.
- إبراز دور منطقة الجنوب الليبي وتكاتف الجهود الليبية مع المقاومة التشادية في الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي.
- إظهار دور رجال حركة المقاومة التشادية، والمجاهدين الليبيين ضد الاستعمار الفرنسي.

التطور التاريخي للعلاقات الليبية التشادية على مر العصور:

تُعَد دراسة العلاقات التاريخية بين تشاد وليبيا قبل الحقبة الاستعمارية مسألة معقدة تتطلب منهجية بحثية دقيقة. يعود ذلك إلى طبيعة المصادر التاريخية المتاحة، والتي غالبًا ما تكون شحيحة ومجزأة، إضافة إلى التحديات الجغرافية التي صعّبت من حركة السكان وتبادل المعلومات بين المنطقتين:

فإذا أردنا أن نتحدث عن الصلات التاريخية بين تشاد وليبيا؛ فليس من السهل إعطاء صورة مفصلة عن هذه الصلات بين هاتين المنطقتين خلال مراحلهما السابقة للاستعمار الأوروبي للمنطقة وذلك لسببين رئيسيين أحدهما جغرافي والآخر تاريخي:

فيما يتعلق بالجانب الجغرافي فإن الصحراء الكبرى كما هو معلوم قد قسمت أفريقيا منذ العصور القديمة إلى قسمين رئيسيين هما: أفريقيا شمال الصحراء؛ وتعرف ببلاد البيضان، وأفريقيا جنوب الصحراء؛ وتعرف ببلاد السودان. والحقيقية التاريخية التي يجب الإشارة إليها هنا من الناحية الجغرافية؛ هي أن أفريقيا بلاد البيضان تكاد تكون منطقة واحدة، وكذا الأمر بالنسبة لإفريقيا بلاد السودان؛ فهذه الحقيقية تعكس صعوبة إعطاء صورة واضحة وجلية عن الصلات التاريخية بين تشاد وليبيا على المدى البعيد، وهاتان المنطقتان لم تتشكلا بحدودهما الحالية إلا في عهد الاستعمار الأوروبي للمنطقة (رماد، 2000: 9).

أما فيما يتعلق بالجانب التاريخي؛ فإن منطقة ليبيا الحالية كانت تقع ضمن منطقة أفريقيا بلاد البيضان، ولها تاريخها المعروف منذ العصور القديمة عند الأمم السابقة كالفينيقيين اليونانيين والرومانيين والمصريين، وذلك أثناء سيطرتهم تباعاً على المنطقة، وعندما جاء الإسلام؛ سجل الكُتّاب المسلمون تاريخ هذه المنطقة في العهد الإسلامي بصورة تكاد تكون مفصّلة (الماحي، 1999: 65). وعلى النقيض من ذلك؛ فإن منطقة حوض بحيرة تشاد الواقعة في منطقة أفريقيا بلاد السودان، يعتري تاريخها بعض الغموض قبل الإسلام، لأنه لم يعثر على وثائق مكتوبة يمكن الاعتماد عليها، باستثناء بعض المعلومات المتناثرة في الكتب هنا وهناك، وعلى الرغم من ذلك فسوف نحاول إلقاء الضوء على تلك الصلات التي ربطت طرفي القارة بعضها ببعض.

إن المتتبع للأحداث التاريخية قديماً؛ قد يجد بلا شك عمق الصلات التاريخية بين سكان القارة، وبالذات أفريقيا جنوب الصحراء وشمالها، فهي قديمة قدم الإنسان الذي عمّر هذه المنطقة رغم صعابها وجفافها، وأن ما يقال عن الصحراء بأنها شكلت حاجزاً طبيعياً قسّم أفريقيا إلى نصفين هو أمرٌ صحيحٌ جغرافياً، لكنه لم يكن حائلاً طبيعياً يحد من تواصل الإنسان في المنطقة، وليس هناك ما يدعو إلى التحفظ من القول بأن الصلات التاريخية التي ربطت بين المنطقتين صلات قديمة والدليل على ذلك كتب الأقدمين (رماد، 2000: 12). أمثال المؤرخ اليوناني هيرودوت الذي عاش في القرن الخامس عشر قبل الميلاد وزار ليبيا في تلك المدة، ويعدّ أول من كتب عن تاريخ ليبيا القديم وعلاقاتها بمناطق بوركو إينيدي تيبستي التي تقع الآن ضمن الأراضي التشادية، حيث قال إن الليبيين يغزون الأثيوبيين (رماد، 2000: 12) وهم القوم الذين يسكنون تيبستي (رماد، 2000: 13). وتلك إشارة واضحة إلى تفاعل المنطقتين منذ القدم على وجه العموم وتشاد وليبيا على وجه الخصوص. أما فيما يتعلق بالرومان فيمثلهم المؤرخ استرابو الذي عاش ما بين 66 ق. م - 24م ويعدّ أول الكُتّاب الرومان الذين تحدثوا عن دولة الجرامنت فقد سجل ذلك في كتابه المسمى بالجغرافيا، حيث أشار إلى دولة الجرامنيت وسكانها ومناطق توزيعها وعلاقتها مع المناطق المجاورة لها، ويقول إن سكان الجرامنيت يوجدون جنوب فزان وشمال منطقة الأثيوبيين (رماد، 2000: 56). ويؤكد ذلك العثور على منحوتة ترجع إلى عصر ما قبل الميلاد جبال أينيدي تيبستي وكانت متشابهة مع آثار منطقة بلاد

البيضان (الماحي، 1990: 47).

إذا أردنا أن نتحدث عن الصلات التاريخية بين تشاد وليبيا في عصر ما بعد الدعوة إلى الإسلام؛ فيتحتم علينا أن نتحدث عن كيفية دخول الإسلام في منطقة السودان الأوسط وخاصة حوض بحيرة تشاد، حيث سلك الفاتحون نفس الطرق التي سلكها الأقدمون للتوغل عبر الصحراء إلى مجاهل أفريقيا. وقد دخل الإسلام هذه المنطقة في زمن مبكر في القرن الأول الهجري السابع الميلادي وبالتحديد عام 46 هـ / 666م مقبلاً من إقليم فزان الذي افتتحه المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه على يد القائد عقبة بن نافع الفهري، ويحتل إقليما فزان وكوار مكانة مهمة بالنسبة لتاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، فهما يكوّنان الطريق الأوسط الذي كان الناس يعبرون بواسطته الصحراء الكبرى (رماد، 2000: 23). والحقيقة أن السودان الأوسط كاد يكون في الماضي السحيق إقليماً واحداً قامت عليه حضارات ذات شأن عظيم ربط بينها شريان من الطرق البرية، وعن طريق درب الأربعين وكوار وفزان جاء الإسلام إلى السودان الأوسط وكانت القوافل تشرع من القيروان إلى طرابلس ومنها إلى مرزق، ثم إلى البلماء عاصمة إقليم كوار، ومنها إلى انجيمي عاصمة مملكة كانم، وعندها يلتقي بالطريق الشرقي الهابط من سيناء بمصر ووادي النيل ثم طريق الأربعين المار بدافور ووداي كما أن سلاطين مملكة وداي احتفظوا بعلاقات سياسية واقتصادية قوية مع مناطق ليبيا منذ القدم (الماحي، 1999: 1).

ازدادت هذه الصلات أهمية خاصة في الجانب التجاري منها في عهد الحكم القرمانلي علي ليبيا (1711-1835م) ويبدو أن طريق وداي بنغازي قام بدور حيوي وفعال في تجارة القوافل منذ اكتشافه وازدادت أهميته بعد أن تنامت قوة وداي في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ويذكر أن مملكة وداي قد صدرت إلى بنغازي عام 1850م نحو 1500 من الرقيق و 41000 كيلوغرام من العاج، وبيعت هذه السلع بما يعادل 300 ألف فرنك فرنسي، واستوردت في نفس الوقت الأقمشة القطنية والحريرية، والأسلحة النارية، والسكر، والشاي، بما يعادل القيمة نفسها (رماد، 2000: 23).

يشير القرن التاسع عشر إلى بداية مرحلة جديدة من التفاعلات التاريخية بين تشاد وليبيا، حيث اتسعت رقعة التبادل الثقافي والسياسي والاقتصادي بين المنطقتين، وتجسد ذلك في وصول الليبيين إلى حوض بحيرة تشاد وتأثيرهم على مسار الأحداث، كما يتضح من تولي الشيخ محمد الأمين الكانمي مقاليد الحكم في كانم عام 1806م.

وقد تمثل ذلك في الحملات العسكرية التي سيرها يوسف باشا لنصرة الشيخ محمد الأمين الكانمي في حربه ضد الفولانيين، وكانت أهم هذه الحملات حملة محمد المكي حاكم فزان 1817م، وحملة مصطفى الأحمر 1821م، وحملة عبد الجليل غيث (الحنديري، 1998: 21-20). وهناك أحداث أخرى أدت إلى توالي الهجرات الليبية إلى حوض بحيرة تشاد، والاختلاط والتواصل مع التشاديين وهو الضغط العثماني، والتدفق الأوروبي واختلاف العشائر فيما بينها، وقد برزت أهمية هذه المنطقة بالنسبة للأوروبيين باكتشاف الثروات التي وجدت في أفريقيا جنوب الصحراء وشمالها. هذه الأحداث وغيرها جعلت تشاد وليبيا على تواصل مستمر بين شعوبها عبر عصورها المختلفة (الحنديري، 1998: 56).

العلاقات التجارية والاقتصادية بين تشاد وليبيا إبان مدة الاستعمار:

إن المتتبع للصلات التاريخية بين منطقة حوض بحيرة تشاد وليبيا؛ يلاحظ أن العلاقات الاقتصادية والتجارية كانت عنصراً مهماً للتواصل بين شعوب هذه المنطقة، وقد شمل هذا التبادل الاقتصادي موارد البلدين، والبلاد المجاورة. ويتمثل هذا النشاط في القوافل التجارية التي كانت تُسيّر بين المنطقتين، وقد كان لها دور مهم في

تطوير العلاقات بين الشعبين، فكانت تصدر الكثير من السلع التجارية التي تأتي من الدول الأوروبية انطلاقاً من طرابلس، ودرنة، وبنغازي والكفرة، وجالو، مثل: الملابس والأقمشة، والأصباغ، وأدوات الزينة، والأسلحة، والسكر، والشاي والبن والإبر والخرز والقدور، والورق، والسبح، والأواني الزجاجية، والعطور والأحذية، والأواني النحاسية والشالات، والسروج، والنحاس الأصفر، والخناجر، ويصدر إليها من الدول الأفريقية العاج، والإبل وريش النعام والجلود المدبوغة، بالإضافة إلى الرقيق. واستخدمت الجمال في نقل هذه البضائع والأفراد إلى مجاهل أفريقيا، وذلك لتحملها صعاب الطرق الصحراوية القاسية وأهم هذه الطرق:

-طرابلس - تاجوراء - سوكنة - مرزق - بلما بحيرة تشاد؛ ويعرف بطريق برنو.

-طرابلس - غدامس - غات - زندر – كانو؛ ويعرف بطريق وسط السودان.

-بنغازي - جالو - أوجلة - الكفرة - أبشه بلاد السارا؛ ويعرف بطريق وداي (التونسي، 2001: 94، 219- 223).

-وهناك طريق آخر اكتشف في وداي في عهد السلطان صابون ينطلق من وداي درنة فران.

وقد تحدث عن هذا الطريق الشيخ ابن عمر التونسي عند مجيئه إلى وداي، وقد أرسل السلطان صابون عن طريقه قافلة إلى ليبيا بقيادة الشريف الفاسي، وصحبه في هذه الرحلة محمد بن عمر التونسي (الحنديري، 1998: 60).

وقد ظل طريق بنغازي - وداي ذا فعالية تجارية حتى نهاية القرن التاسع عشر، فقد ورد في تقارير القنصلية الإنجليزية ببنغازي أنه قد تحركت بين عام 1896 - 1897م سبع عشرة قافلة من بنغازي إلى وداي خمس عشرة منها يملكها تجار من بنغازي، وأن عدد الجمال في القوافل بلغ (582) جملاً، أما القافلتان المتبقيتان فمملوكتان لقبيلتي الزويّة والمجابرة، بحيث يملك المجابرة في هاتين القافلتين (550) جملاً والزوية يملكون (100) جملٍ، وهذا يدل على الحجم الكبير للتبادل التجاري بين المنطقتين في ذلك الوقت (الحنديري، 1998: 60). وقد استفاد سكان هذه المناطق من هذه القوافل التي تمر بهذه الطرق فائدة كبيرة، وكذلك الممالك والسلطنات التي كانت تصدر وتستورد السلع، وقد اهتم السلاطين اهتماماً خاصاً بهذه القوافل، ودلت المراسلات المتبادلة بين سلاطين برنو ووداي وبعض زعماء القبائل الليبية التي تقوم بالتجارة، على أهمية هذه الطرق، والمحافظة عليها، ويظهر ذلك في الرسالة التي كتبها السلطان محمد شريف (1835 – 1858م) سلطان وداي إلى الشيخ يونس، وهو من كبار زعماء المجابرة، يقول فيها: « أتتنا من طرف سيادتكم قافلة فرحنا بها غاية الفرح، وسررنا بها غاية السرور، وظهر لكم منا المحبة، الطريق بيننا وبينكم سهل كما تحب وترضى» (الحنديري، 1998: 60). ويذكر الحنديري بأن أولاد سليمان قد سيطروا منذ منتصف القرن التاسع عشر على طريق طرابلس برنو وذلك نتيجة لتحالفهم مع سلاطين برنو بهدف تأمين الطرق وخاصة طريق الملح مع كوار، ودخلوا في معارك دامية مع الطوارق خلال مدة حكم الشيخ عمر بن محمد الأمين الكانمي (1835 – 1880م) (الحنديري، 1998: 63-62). وقد وصل التعاون بين المجابرة وسلاطين وداي من أجل تأمين طرق التجارة المتبادلة بينهم إلى التحالف وإبرام العهود، والدليل على ذلك الوثيقة التي عثر عليها في يناير 1981م في أبشه مختومة بختم السلطان علي السليك ابن السلطان دود مرة، والمؤرخة بتاريخ جمادى الآخر 1379هـ وجاءت كلماتها حرفياً كما يلي:

« أما بعد؛ ليعلم الواقف على هذه الورقة أن السلطان علي بن السلطان محمد صالح بن السلطان يوسف بن السلطان شريف العباسي؛ قد أطلع على ورقة المجابرة الذين بجالو وليبية، وحاصل فيها اتصالات وموادات ومعاهدات مع آبائنا وأجدادنا السابقين لكوننا نفس وشيء واحد بحسب الأخوة الإسلامية ويؤكد ذلك

معاهدة الآباء سابقاً لقوله عليه الصلاة والسلام عهود الآباء ترثه الأبناء وإننا محافظين علي تلك العهود وبرؤية تلك الورقة التي كتبها لهم جدنا السلطان الشريف العباسي علمنا أكيد نحن وإياهم على حالة واحدة، وورقة جدنا كاتبها للشيخ يونس وجميع كبراء المجابرة الذين بجالو سابقاً، وإننا اليوم في أثرهم، بيد أن الورقة تغيرت، وإن شاء الله نحن مع ذلك محافظين لعهود الآباء والأجداد، ومطلوب منكم أن تعلموا جميع المجابرة بذلك. الحال لتكن نحن وإياهم على بصيرة الذين مضوا قبلنا، وحفظنا الله وإياهم من كل مكروه وبالجملة منذ أن رأينا الورقة منكم صرنا منشرحين الصدور هذا ما لزم إعلامكم به والسلام». ختم السلطان علي السليك (الحنديري، 1998: 63-62).

هذه الرسالة تدل على مدى الود والاحترام المتبادل بين السلاطين ومشايخ القبائل الليبية المهاجرة إلى منطقة حوض بحيرة تشاد واحترام العهود أو لمواثيق بين الأبناء والأجداد مما مهد للقبائل الليبية للهجرة إلى تشاد عندما تتعرض للضغوط في أي مرحلة من المراحل. لكن النص الحرفي للرسالة يحمل ضعفاً لغوياً قد يؤثر على فهم النص، حسب رأي الباحث.

العلاقات التجارية والاقتصادية بين حوض بحيرة تشاد وليبيا بعد الاستعمار:

استمرت القوافل التجارية في الربط بين شعوب هذه المنطقة حتى بعد مجيئ الاستعمار الأوروبي وسيطرته على بعض الدول، وبالتالي تأثرت هذه التجارة، وبالذات أثناء الصراع العثماني الفرنسي في الصحراء الكبرى (1858-1911م)، ومحاولة كل منهما الاستفادة من هذه الطرق، حاولت فرنسا جاهدة تغيير وجهة التجارة إلى الجزائر بدلاً من ليبيا، فبدأت بالضغط على التجار الليبيين يفرض الضرائب الجمركية عليهم، والتسهيل للتجار التونسيين بإعفائهم من الضرائب، فرفع التجار الليبيون شكوى إلى الدولة العثمانية (الحنديري، 1998: 18-17).

وفي المدة ما بين عامي 1893 - 1894م توقفت التجارة مؤقتاً بعد غزو رابح المملكة باقرمي وبرنو كما شهدت هذه المدة مراقبة شديدة من قبل الاستخبارات الأوروبية لهذه الطرق بغرض تطويق الحركات الإسلامية في هذه المنطقة: المهدية في السودان، والسنوسية في ليبيا وتشاد ورابح في أوبانقي شاري، بالإضافة إلى الممالك التشادية التي تسعى فرنسا للاستيلاء على أراضيها.

مراحل هجرة القبائل الليبية إلى تشاد:

هناك ترابط قوي بين الشعبين التشادي والليبي، كرابطة الجوار والدين والعرق والتاريخ المشترك والهجرات الليبية إلى حوض بحيرة تشاد ناتجة عن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت بين الشعبين في العصور المتعاقبة، وهناك العديد من المصادر التي تتحدث عن الهجرات الليبية إلى حوض بحيرة تشاد ومقدارها وكيفيتها، وثم تقسيم هذه الهجرات إلى ثلاثة مراحل رئيسة حدثت في فترات متقاربة، ولكل هجرة أسبابها ودوافعها التي دفعت أصحابها إلى الهجرة (رماد، 2000: 25 وما بعدها).

وقد توافرت في تلك المدة (1840 – 1930) عوامل طاردة في ليبيا، وأخرى جاذبة في تشاد نتج عنها هجرة العديد من القبائل والعشائر الليبية إلى حوض بحيرة تشاد وهذه المراحل هي:

المرحلة الأولى 1842م:

حدثت هذه الهجرة سنة 1842م، وشملت عدة قبائل من منطقة سرت وفزان، وكانت أغلب العشائر المهاجرة إلى تشاد من قبيلة أولاد سليمان.

المرحلة الثانية 1861م:

حدثت هذه الهجرة سنة 1861م وشملت عدة بيوت من منطقة سرت وإجدابيا، وأغلب المهاجرين من

قبيلة المغاربة.

المرحلة الثالثة 1928 - 1930م:

حدثت هذه الهجرة في المدة ما بين 1928 - 1930م وشملت قبائل مختلفة من سرت وورفلة وفزان بالإضافة إلى الجنوب الشرقي من ليبيا أثر الضغط الإيطالي لها (الحنديري، 1998: 19-18).

الأسباب التي أدت إلى الهجرات الليبية إلى تشاد:

من العوامل التي أدت إلى الهجرات الليبية المتلاحقة إلى حوض بحيرة تشاد: سوء الحياة الاقتصادية خلال أواخر العهد القرمانلي (1711 – 1835م)، والضرائب التي كانت تفرضها الإدارة العثمانية على القبائل الليبية، والتعسف الذي يمارسه جباة الضرائب عليها في هذه المدة (1911-1935م)، وقد رفضت بعض القبائل هذه المعاملة القاسية فامتنعت عن دفع الضرائب الأمر الذي اعدّته الإدارة العثمانية عصياناً لها، فجردت حملات ضد هذه القبائل، فلم يكن أمامها إلا الهجرة إلى منطقة حوض بحيرة تشاد القريبة منها والمتشابهة في مناخها حيث استضافهم أهلها. وتذكر بعض الروايات الشفهية أنه بعد مقتل عبد الجليل غيث شيخ قبيلة أولاد سليمان على يد حملة البلعزي اجتمعت عشائر أولاد سليمان للتشاور في أمر القبيلة، واستقر بهم الرأي إلى الهجرة إما إلى مصر أو إلى حوض بحيرة تشاد، ففضل غالبيتهم الهجرة إلى حوض بحيرة تشاد، وكان على رأس المؤيدين الهجرة إلى تشاد الشيخ عبد الجليل فكان يوصيهم بالهجرة إلى كانم. فهي بالإضافة إلى كونها بلد مسلم، وبه الكثير من الخيرات، كانت تربطها علاقات قوية بليبيا (الحنديري، 1998: 18).

كذلك فإن منطقة حوض بحيرة تشاد في تلك المدة لم تكن منطقة مجهولة بالنسبة لليبيين فقد كانت هناك اتصالات وعلاقات اقتصادية واجتماعية وسياسية بين الشعبين. ولعل أبرزها تلك الحملات التي كان الوالي العثماني يوسف باشا القرمانلي يجردها بين الحين والآخر لنجدة محمد الأمين الكانمي، الذي كان يقود في تلك المدة حرباً ضد قبائل الفولاني ومملكة باقرمي وقد بعث يوسف حملته الأولى إلى كانم بقيادة محمد المكنى وإلى فزان (1817م). وقد عاد المكنى بغنائم عديدة وهدايا مبعوثة من محمد الأمين الكانمي إلى يوسف باشا (ح. التونسي، 1895 :137). وفي سنة 1821م بعث يوسف باشا القرمانلي بحملة أخرى بقيادة الأحمر الذي ساعد الكانمي على سلطان باقرمي، حيث دخل ماسينيا عاصمة مملكة باقرمي، إلا أن عبد الجليل عمل على توطيد علاقاته مع حاكم ماو عاصمة كانم المدعو مليقانا، وعمل على تنمية التجارة مع كانم، وكانت تدر له أرباحاً هائلة، مما شجعه على الاستقلال بفزان، الأمر الذي أدخله في حرب مع الأتراك.

هذه الأسباب وغيرها هي التي شجعت عبد الجليل بأن يوصي اتباعه بالهجرة إلى كانم داخل الأراضي التشادية (شعبان، 2013: 249). ومن الأسباب التي جعلت القبائل الليبية تهاجر إلى حوض بحيرة تشاد التشابه بين البيئتين، إذ يوجد تشابه بين منطقتي سرت والكفرة، ومناطق إينيدي تيبستي وكانم حيث تتكون من صحاري، وبعض الكثبان الرملية، والأودية الجافة، والمنخفضات والينابيع، كما أن هناك تشابهاً واضحاً في كمية الأمطار التي تسقط بين المنطقتين (الحنديري، 1998: 23). ومن العوامل التي ساعدت القبائل الليبية في التوغل نحو حوض بحيرة تشاد الصراعات التي كانت تدور بين الممالك والقبائل في الداخل، مما يدفعهم للوقوف والتحالف مع أحدهما ضد الآخر من أجل كسب الغنائم. وقد استطاع أولاد سليمان بهذا التحالف أن يشنوا بعض الحملات على الطوارق والدازا والكانميو وغنموا غنائم متنوعة من الإبل والبقر، علاوة على اكتسابهم مكانة بين السكان وسيطرتهم على طرق التجارة، وكانت لهم مكانة خاصة بين السكان في كانم سنة 1850م (الحنديري، 1998: 23).

القبائل الليبية المهاجرة إلى تشاد وأماكن تمركزها:

كانت أخبار المهاجرين الأوائل الذين استقر بهم المقام، وطاب لهم العيش في كانم تأتي إلى أهلهم ومعارفهم، مما شجعهم على اللحاق بهم نتيجة لضغوط الولاة العثمانيين عليهم في مسألة جباية الضرائب التي تفرض عليهم، فقد هاجرت عام 1861م مجموعة من قبيلة المغاربة إلى شمال حوض بحيرة تشاد، وقد لقب أفراد هذه القبيلة بأصحاب العباءات السوداء، تميزاً لهم عن باقي المجموعات والقبائل التي هاجرت قبلهم، وربما كان بعضهم يرتدي هذا اللون من العباءات، وقد استقرت هذه المجموعات أيضاً في نفس المنطقة التي سكنت فيها القبائل الليبية شمال تشاد، وامتزجوا مع بعض القبائل المحلية مثل الدازا. وفي سنة 1836م قامت مجموعة أخرى من قبائل القذاذفة و ورفلة تقدر بنحو (300) رجل بالهجرة إلى حوض بحيرة تشاد، واستقرت أيضاً في منطقة كانم، والملاحظ أن تدفق القبائل الليبية المختلفة واستقرارهم في كانم أدى إلى توحدهم وصاروا قوة فيما بعد (الحنديري، 1998: 24). وقد أجبر بعض السلاطين على التحالف معهم، فقد لجأ الشيخ محمد الأمين الكانمي (1835 -1880م) إلى عقد تحالف معهم ضد تقدم سلطان دار وداي نحو برنو، وفي المقابل يقوم الشيخ بتزويد هذه القبائل بالسلاح والغلال حتى يحطم سلطان وداي، وبسبب هذا التحالف بين الشيخ عمر والقبائل الليبية بدأ سلطان وداي يغدق الهدايا على زعماء تلك القبائل ولكنه لم يوفق في ذلك (الحنديري، 1998: 25).

وهكذا ظلت القبائل الليبية في شمال تشاد حتى الغزو الفرنسي المنطقة حوض بحيرة تشاه 1899م، ومحاولة احتلال كانم بعد مقتل را بحفي 20 أبريل 1900م، ولما تقدمت فرنسا نحو تشاد وقفت القبائل الليبية (أولاد سليمان والقذاذفة والمغاربة وورفلة والشريدات اللهيوات وغيرهم) مع المقاومة الوطنية التشادية ضد الغزو الفرنسي، مما جعل تقدم الفرنسيين نحو الشمال بطيئاً على الرغم من الإمكانيات العسكرية الكبيرة والقوى البشرية المدربة، بالإضافة إلى بعض القوي المحلية المتحالفة معهم أمثال السلطان فورانق، وسلطان زندر وجرت هناك معارك غير متكافئة في تلك المدة (الصلابي، 2011: 21).

نشأة الحركة السنوسية ومؤسسها:

هو الشيخ محمد بن علي بن السنوسي بن العربي بن محمد بن عبد القادر بن شهيدة بن حم بن يوسف بن عبد الله بن خطاب بن علي بن يحيى بن راشد بن أحمد المرابط بن منداس بن عبد القوي بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن إدريس بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علي بن عمران بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي (الصلابي، 2008: 22).

ولد صبيحة الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول 1202 هـ الموافق 22 / 12 / 1787م لذلك سماه والده محمداً تيمناً باسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت ولادته بضاحية ميثا الواقعة على ضفة وادي شلف بمنطقة الواسطة التابعة لمنطقة مستغانم بالجزائر، توفى والده بعد سنتين من ولادته فتولت عمته فاطمة تربيته فنشأ عندها نشأة صالحة، وكانت من فضليات أهل زمانها ومتبحرة في العلوم، ومنقطعة للتدريس والوعظ والإرشاد، وكان يحضر دروسها الرجال (الصلابي،2011: 21).

شب في طلب العلوم عند مشيخة بلدته مستغانم، فمكث فيها سنتين أتم خلالهما حفظ القرآن برواياته السبع، ودرس الكثير من كتب الفقه والسيرة والعقيدة، بالإضافة إلى كتب اللغة العربية (الصلابي، 2011: 22).

خرج في أوائل 1221هـ من مستغانم إلى بلدة مأذونة التي مكث فيها سنة كاملة لطلب العلم، فتتلمذ على مجموعة من مشايخها وهم: محمد بن علي بن أبي طالب، وأبو رأس المعسكري. وأبو المهل أبو زوينة بعد ذلك رحل إلى مدينة تلمسان وأقام بها قرابة السنة، حيث تتلمذ على كبار شيوخها متفرغاً في تحصيل العلم والمعرفة (الصلابي، 2008: 22).

ثم قصد بعدها مدينة فاس في المغرب ومكث فيها سبع سنوات من أجل التحصيل العلمي وتبحر في الطرق الصوفية بالإضافة إلى الفقه والعقيدة، وتحصل على إجازات من علماء راسخين في العلم، وأصبح مدرساً بالجامع الكبير بمدينة فاس حتى نال منصب المشيخة الكبرى بها (الصلابي، 2011: 23).

كان محمد بن علي منذ صغره يميل إلى الانزواء والانفراد، ويمضي وقتاً طويلاً في التفكير العميق، ويتألم من حال الأمة وما وصلت إليه من الضعف والهوان والضياع، وكان يبحث عن أسباب الهبوط، وعوامل النهوض، كما يبحث عن طريقة لتوحيد صفوف الأمة وإحياء الملة، وحدث ذات مرة أن وجده بعض العلماء جالساً فوق كثيب من الرمال تظهر على صفحات وجهه المشرق علامات التفكير العميق، فلما سألوه عن السبب في ذلك أجاب بأنه يفكر في حال العالم الإسلامي الذي لا يعدو عن كونه قطيعاً من الغنم لا راعي له، على الرغم من وجود سلاطينه وأمرائه ومشايخ طرقه وعلمائه (شكري، 1948: 14-13).

مع أن هناك عدداً كبيراً من المرشدين، وعلماء الدين الموجودين في كل مكان، فإن العالم لا يزال مفتقراً أشد الافتقار إلى مرشد حقيقي، يكون هدفه سوق العالم الإسلامي أجمع إلى غاية واحدة نحو غرض واحد، والسبب في هذا انعدام الغيرة الدينية لدى العلماء والشيوخ، وانصرافهم إلى الخلافات القائمة بينهم التي فرقتهم شيعاً وجماعات، فأصبحوا لا يعنون بنشر العلم والمعرفة ولا يعملون بأوامر الدين الحنيف، وهو دين توحيد أساسه الاتحاد وجمع الكلمة. زد على هذا أن على هؤلاء العلماء والشيوخ واجب عظيم في حق الملة الإسلامية، لأن الشعوب المجاورة في السودان والصحراء من أفريقيا الغربية لا يزال الكثير من شعوبها تعبد الأوثان، ومع هذا فإنهم بدلاً من وعظ هذه الشعوب الوثنية وإرشادهم إلى الدين القويم، مازالوا يفضلون القبوع في كل مسجد من مساجد المعمورة غير عاملين بعلمهم لا هم لهم إلا راحة أجسامهم، حريصين على لذاتهم، غير قائمين بواجبات مراكزهم، لا ضمائر لهم تؤنبهم على إهمالهم إرشاد هؤلاء المساكين الوثنيين (الصلابي،2008: 24).

ومع ذلك فقد بلغ من القوافل الواصلة إلى بلده مستغانم أن الإسلام مغلوب على أمره في كل محل، وأن المقاطعات والخطط المعمورة تذهب من أيدي المسلمين في كل وقت بسرعة البرق، فالإسلام في حالة تدهور مخيف، ثم ختم كلامه بقوله «هذا ما أفكر فيه»، فلما سألوه: وماذا يجب على المسلمين فعله لتلافي ما ذكرت أجاب: «سأجتهد سأجتهد» (الصلابي،2008: 24).

لقد كان تفكيره في حال الأمة مبكراً، وأخذ يبحث عن العلل والأسباب التي أدت إلى هذا التدهور والانحطاط والضعف في كيان الأمة، وذكر أن من أسباب هذه الحال: فقدان القيادة الرشيدة، وغياب العلماء الربانيين، وانعدام الغيرة على الدين، والانشغال بالخلافات الهامشية التي فرقتهم شيعاً وجماعات، والتفريط في حق دعوة الناس إلى الإسلام، فلذلك اهتم بالبحث عن أسباب النهوض، فرأي أن بدايتها الإيمان العميق بمبادئ وقيم الدين الحنيف كما قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) -الأعراف الآية (96). وعندما رأى الناس صلاحه وتقواه وفهمه الدقيق لعلوم الدين، واهتمامه بأمر وحدة المسلمين، اجتمعوا حوله، فدب الخوف في حكومة السلطان سليمان من نفوذ ابن السنوسي ومكانته في قلوب الرعية، فرأت في أفكاره

الناقدة لولاة الأمر تهديداً لمكانة السلطان، فبدأت بوضع العراقيل له وأحس بعدم جدوى وجوده في فاس، فرحل عنها بعد أن تشبع من أصول الدعوة وعزم على محاربة الأوهام والخزعبلات التي أبعدت الإسلام عن حقيقته، كما أن تجربته مع السلطان سليمان أكسبته خبرة في التعامل مع الحكام في المستقبل، كما لاحظ أثناء تواجده بالمغرب بداية التغلغل الأوروبي وتأثيره على المدن المغربية، وشعر بالخطر الذي بدأ يهدد البلاد الإسلامية من الدول الأوروبية المسيحية، فقد سمع عن النكبات التي حلت بالمسلمين في الأندلس، واحتلال الكثير من المدن في الشمال الإفريقي في القرنين الأخيرين من قبل الإسبان، وما تزال صدى أعمالهم الشنيعة تتناقل من جيل إلى جيل، من قتل وسلب وسبي، وتحويل المساجد إلى كنائس، كل هذه الأشياء أثقلت أفكاره وجعلته يفكر ملياً في تغيير حال الأمة إلى الأحسن (الصلابي، 2011: 24، 25).، وقد تأثر بالطرق الصوفية التي تعمق في دراستها، وساعدته الظروف حيث كانت فاس مركزاً نشطاً للطرق الصوفية آنذاك، وتأثر أيضاً بالحركات الإصلاحية التي كانت تقف في وجه الحكام ضد انحرافاتهم (الصلابي، 2011: 25). ومن الأسباب التي جعلته يغادر مدينة فاس، بالإضافة إلى الأسباب السابقة، رغبته الملحة لحج بيت الله الحرام، وزيارة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، لذلك غادر المغرب العربي برفقة قافلة ذاهبة إلى المشرق (الصلابي، 2008: 31).

رحلته إلى المشرق ودخوله الأراضي المصرية:

كان التفكير عند ابن السنوسي للسفر إلى مكة طبيعياً، فهو من ناحية لابد أن يؤدي فريضة الحج، وتعلق قلبه بحج بيت الله الحرام وحلم بالعيش في الأراضي المقدسة، وذلك للقاء كبار علماء المشرق بعد أن اغترف العلم من علماء المغرب لأن مكة تجمع كل علماء العالم الإسلامي، كما فكر في لقاء شعوب كل العالم لجس نبض حال الأمة لأنها ملتقى المسلمين لأداء فريضة الحج (بن علي، 1966 : 13).

وقد قيل أن ابن السنوسي قبل سفره إلى المشرق رجع إلى بلده مستغانم وفيها قام بإتمام أول زواج له بإحدى بنات عمومته، فرحل بزوجته جنوب شرق قسنطينة، فبني زاوية، ومارس فيها الوعظ والإرشاد، وقرر بعد ذلك الارتحال إلى مكة، فلم ترغب زوجته مرافقته فطلقها بسبب ربما يتأخر عليها فلا يريد أن يظلمها، وكان قد أنجب منها طفلاً ولكنه توفي وهو صغير ثم ماتت أمه بعده (بن علي، 1966 : 13).

غادر ابن السنوسي الجزائر، ودخل تونس وقابس واستقر بجامع الزيتونة حيث استفاد من شيوخها وأفاد طلابها، ثم واصل سيره ودخل طرابلس الغرب، وكان ذلك في عهد يوسف القرمانلي[1] الذي كان مستقلًا عن الدولة العثمانية فأكرم نزله ومكث في طرابلس وضواحيها مدة من الزمن للوعظ والإرشاد، ولم يترك مسجداً معروفاً بها إلا وألقى فيه دروساً، وتعلق به آل المنتصر، وأصبحوا النائبين له في طرابلس، وسافر إلى زليطن لنشر الدعوة ووعظ وإرشاد الناس، واستطاع أن يكسب الكثير من الأنصار لدعوته في كل من مصراته وزليطن وطرابلس (بن علي، 1966 : 14).

ومن أشهر الأسر التي أصبحت ركائز للحركة السنوسية فيما بعد آل المحجوب، وآل الأشهب وآل الدردني وآل عمران بن بركة، وآل يوسف، وآل بن فرج الله، وآل المقرحي، وآل الثني، وآل الغرياني، وآل العيساوي، وآل الغزالي، وآل الهوني، وآل الزناتي (الصلابي، 2011: 21).

(1)* القره مانلي: كان وزيراً وقبطانا للأسطول العثماني عاش في المدة ما بين 1604 - 1646م.

نستطيع تحديد تاريخ دخول ابن السنوسي طرابلس الغرب عن طريق حفيده أحمد الشريف الذي تحدث عن اجتماع جده بأحد مريديه وهو عمران بن بركة « فكان اجتماعه به أثناء مروره عليهم قادماً من الغرب إلى المشرق سنة ثمان وثلاثين بعد المئتين والألف في بلدة زليطن يغرب طرابلس الغرب» (الصلابي، 2011: 30). استغل ابن السنوسي فرصة مروره بالساحل الإفريقي في التعرف على أحوال المسلمين في تلك المناطق، وكوّن فكرة عن أوضاعهم، وقد استفاد فيما بعد من هذا التعارف بعد عودته من الحجاز.

دخل ابن السنوسي القاهرة وكان يحكم مصر آنذاك محمد علي باشا وكان ذلك عام 1339 هـ الموافق 1824م، وكانت هذه فرصة ليتعرف محمد بن السنوسي على تجربة محمد علي باشا في الحكم، وقد لاحظ ابن السنوسي عدة أمور جعلته لا يرتاح إلى نوع الحكم الذي أقامه محمد علي باشا، وازداد قناعة بخطورة حكم محمد علي باشا علي الأمة، لأن سياسته كانت تخدم أعداء الإسلام وهيأت سياسته المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية، وقد استطاع أعداء الإسلام تحقيق أهدافهم بواسطة محمد علي باشا بعدة طرق منها:

-تحطيم الدولة السعودية الأولى التي كانت خنجراً مسموماً في ظهر الأطماع البريطانية في دول الخليج خصوصاً والعالم العربي علي وجه العموم.

-فتح الأبواب أمام الدول الغربية لإقامة مؤسسات معادية للإسلام والمسلمين في دول المشرق مثل الماسونية، وإرساليات التبشير وأديرة وكنائس، ومدارس نشطة في بذر التيارات القومية المعادية للمسلمين.

-فتح المجال للشركات الأوروبية لتتحكم في الاقتصاد الإسلامي.

-منح امتيازات واسعة للأوروبيين (الصلابي، 2008 : 25).

خنق التيار الإسلامي ومضايقته العلماء ومنع المسلمين من تكوين تكتلات توحدهم، أما الأزهر الشريف فكان في غاية الانحطاط، وضعف دور علمائه، وانتشرت الخلافات فيما بينهم، واهتمام العلماء بالمختصرات، والشرح في الحواشي وقفل باب الاجتهاد، وطغى التعصب المذهبي. وبعد هذه التجربة القصيرة في مصر قرر مواصلة رحلته إلى مكة (الصلابي، 2001: 570).

رحلته إلى مكة المكرمة وتأسيسه لأول زاوية:

دخل محمد بن السنوسي الحجاز عام 1340 هـ الموافق 1835م بعد أن مكث سنة كاملة في مصر، وكانت لزيارته للحجاز أثراً كبيراً في قيام الحركة السنوسية وساعده في ذلك جملة من الأسباب:

-تلقيه الكثير من المعلومات عن أحوال وأخلاق المسلمين الوافدين من جميع الأقطار إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج.

-وجد الفرصة للاحتكاك بعلماء وفقهاء ومفكري الأمة وتبادل معهم الآراء حول كيفية النهوض بالأمة وإعادة مجدها. كانت مركزاً مهماً لنشر الدعوة ولذلك انتهز فرصة وجوده هناك لنشر دعوته.

وجد الفرصة للتعرف عن قرب علي الكثير من الاتجاهات الفكرية المختلفة، فمنهم الصوفي والسلفي وخاصة حركة محمد بن عبد الوهاب، حيث عاشر أتباع السلفية ودرسها دراسة واعية في مواقفها السياسية واجتهاداتها العلمية، ومن أشهر العلماء الذين درس عندهم أبو سليمان عبد الحفيظ العجمي مفتي مكة وقاضيها، وأحمد الدجان الذي أخذ عنه عدداً من الطرق الصوفية، وأحمد بن إدريس الفاسي، وهو من الشيوخ الذين درس عندهم وتأثر بهم حتى رحل معه إلى صبيا باليمن - أحد أقضية لواء عسير - عندما تعرض لضغوطات من قبل الحكومة العثمانية وانتقادات علماء مكة فمكث معه حتى وفاته سنة 1835م (الصلابي، 2008: 40-39).

تأثر ابن السنوسي بشيخه أحمد بن إدريس تأثراً كبيراً، وأحبه شيخه حباً شديداً وهو أيضاً كان يحبه ويقدره ويفضله على غيره، وهذه شهادة ابن إدريس لابن السنوسي: «أما ولدنا السيد محمد بن السنوسي فنحن أمرناه أن يدل الخلق على الله، ويجذب الطالبين إليه، إياكم ثم إياكم ما يقطعكم عن صحبته، فإنه النائب عنا، قد اختاره الله لذلك، وقد طلب منا مراراً أن نجعل ذلك لمن يقوم به غيره فلم تر فيه المصلحة إلا هو. ونحن ما أقمناه حتى أقامه الله، فقد قام امتثالاً لأمره فلم يكن له غرض لطلب دنيا ولا جاه» (الصلابي، 2011: 24).

أول زاوية لابن السنوسي في الحجاز:

أخذ ابن السنوسي من شيخه أحمد بن إدريس الإذن لإعطاء العهود، وتلقين الذكر، فإذن له بذلك، ولم يلبث ابن السنوسي بعد ذلك طويلاً حتى بنى أول زاوية له في الحجاز، وباشر في الدعوة وإلقاء الدروس فيها قبل وفاة شيخه (الصلابي، 2008: 40).

ويعدّ المؤرخون زاوية أبي قبيس، أول الزوايا التي أسسها ابن السنوسي بعد اعتزامه القيام بالدعوة، كوسيلة لنشر تعاليمه وأفكاره (الصلابي، 2011: 42-41).

مكث ابن السنوسي في الحجاز خمسة عشر عاماً في رحلته الأولى كون خلالها الكثير من الأتباع والمريدين، مما أثار غضب وضغينة علماء مكة الذين يخالفونه وينتقدون اعتماده الخالص على الكتاب والسنة، وإقامته الحجة على أن باب الاجتهاد لم يغلق بعد، وزاد الأمر تعقيداً أن السلطات الحكومية بدأت تشعر بخطورة دعوته والتفاف الناس حوله، وكان ابن السنوسي على اتصال دائم مع تلاميذ أحمد بن إدريس في صبيا وقد تبنوا أفكار السلفية، وكان العداء على أشده بين الحكومة العثمانية والأشراف بمكة، وبين أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهكذا كثرت الصعاب والعوائق ففكر في الانتقال بالدعوة إلى مكان آخر (الصلابي، 2008: 38).

انتقال ابن السنوسي إلى الغرب:

هناك عدة أسباب تضافرت ودفعت بابن السنوسي المغادرة الحجاز منها وفاة شيخه ومعلمه أحمد بن إدريس الفاسي، وعداوة علماء مكة وشيوخها لأفكاره وتوجهاته، وخوفه من توجس الدولة العثمانية من تنامي علاقته مع أبناء أحمد بن إدريس بمنطقة عسير، وهي مرتع لأتباع السلفية، ودعوة أتباعه ومريديه من أهالي المغرب وشمال أفريقيا لزيارتهم، ورغبته في مقاومة الفرنسيين الذين اجتاحوا شمال أفريقيا وخاصة بلده الجزائر (الصلابي، 2008: 43).

كل هذه الأسباب دعته لعقد النية والتصميم على السفر، والتحق بركبه العديد من أتباعه ومريديه، وعين الشيخ عبد الله التواتي على زاوية أبي قبيس بمكة للقيام بشؤون الأتباع، وذلك في أواخر عام 1255م، ودخل مصر في أوائل عام 1256م، وزار الجامع الأزهر، وألقى دروساً فيه ومكث فيه بضعة أشهر، وقد وجد معارضة من علماء الأزهر المحافظين الذين غضبوا عليه، ولم يرضوا عن طريقة تفكيره وفهمه للإسلام، تعرض ابن السنوسي إلى هجوم من قبل الشيخ عليش المالكي بسبب دعوته لفتح باب الاجتهاد (يوسف، 2000: 60).

غادر ابن السنوسي مصر واتجه نحو واحة سيوه براً، وواصل سيره ماراً بجالو ثم أوجلة حتى وصل برقة، ونزل عند عائلة اللواتي ورافقوه إلى منتجع المغاربة، وانتقل إلى مصراتة حيث قابل آل المنتصر، ثم إلى زليطن ومنها إلى طرابلس، ومنها إلى زوارة، حتى دخل حدود تونس فمكث بمدينة فاس ليوجه مساعدة إلى المقاومة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري، وعندها علم برصد الفرنسيين لتحركاته، قرر أن لا يواصل سيره، بل انتدب محمد بن صادق وحمله بعض الأسلحة والأموال لتوصيلها للمقاومة (يوسف، 2000: 60).

عاد ابن السنوسي إلى طرابلس عام 1357هـ مع مجموعة من الأتباع والمريدين ونزل عند آل المنتصر، وتخوف الوالي العثماني علي عشقر من دعوته، فقد وصلته معلومات مشوهة عن ابن السنوسي ودعوته، ونوى اعتقاله إلا أن المنتصر هداه وأتي بالشيخ إلى الوالي، وعقد مجلس علمي حول دعوته فوقف الوالي على حقيقة الدعوة، فتأثر به واعتذر له وأصبح من أتباعه، فمكث في طرابلس مدة يعلّم الناس ويذكر هم أمور دينهم، وحرص الوالي العثماني على الاستفادة من نفوذ ابن السنوسي في استتباب الأمن، وجمع الكلمة، لأن الحرب كانت مشتعلة في جبل نفوسة بقيادة غومه المحمودي وسيف النصر ضد العثمانيين (الصلابي، 2008: 48).

واصل ابن السنوسي سيره إلى سرت برفقة آل المنتصر، ووجد كوكبة من زعماء القبائل في انتظاره في برقة من العواقير والمغاربة وأهل الجبل الأخضر، ثم واصل سيره إلى مكان يسمى (مسة)، وتقدم منها إلى مكان يسمى دنقلة، حيث وجدت الزاوية التي أسسها تلاميذه قبل مجيئه بتوجيه منه، وهي أول الزوايا التي أسسها ابن السنوسي خارج الحجاز، وقد بنيت الزاوية البيضاء خارج البلدة في موقع استراتيجي، ومنها بدأ بنشر دعوته في المدن المجاورة وبدأت تتوافد إليه القبائل، وتطلب منه إنشاء زوايا لها في أماكنها، أسوة بالزاوية البيضاء، فيتوجه هو بنفسه لإنشاء الزاوية، أو ينتدب شخصاً لذلك، وهكذا بدأت القبائل تتسابق في إنشاء الزوايا حتى تم تأسيس ما يزيد عن عشرين زاوية (الصلابي، 2011 : 50). والزوايا التي تم تأسيسها في السنوات الأربع في الجبل الأخضر وبرقة هي البيضاء شحات بنغازي، درنة، مارة، أم الرزم العرقوب تكورة، طلميثة، الطليمون، الفائدية المخيلي القصور المرج، أم ركبة، أما في فزان: مرزق زويلة، هون كوسنة، أما في طرابلس: مزدة طبقة الرمان تونين مصراتة زليطن زلة، وزوايا أخري في تونس تسمي زوايا الجريد (الصلابي، 2011: 49 – 53).

كان من الأسباب التي جعلت ابن السنوسي يختار منطقة برقة مركزاً لدعوته هو النظام القبلي المعقد وانتشار الجهل في تلك المنطقة، وعدم سيطرة العثمانيين عليها، فاختياره يدل على معرفة جيدة بالمنطقة التي اتصفت بفراغها السياسي، وبجهلها العلمي، فاستطاع أن يزكي النفوس ويزيل الجهل، ويحارب الظلم. وفي مدة وجيزة أصبح في تلك القبائل علماء يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وظل ابن السنوسي في هذه المنطقة خمس سنوات ينشئ الزوايا وينظمها ويرسم منهجاً لدعوته ومبادئها، ثم عاد بعد ذلك إلى مركزه الأول بالحجاز، مخلفاً فيها عدداً من الأتباع الذين يقومون بشؤونها، وبذلك أصبح هناك مركزان لدعوته الأول بالحجاز والثاني ببرقة (الصلابي، 2008: 54-51).

<u>أسباب انتقال ابن السنوسي إلى الجغبوب:</u>

-إن اختيار ابن السنوسي الجغبوب كمركز لقيادته دليل على بعد نظره ورجاحة عقله وحسن تصرفه، وقد ذكر المؤرخون عدة أسباب لذلك منها:

- الاهتمام بالطرق الرئيسية للصحراء الكبرى من نواحي الجنوب والغرب والشرق، فالجغبوب كانت نقطة التقاء بين هذه الطرق، لذا فهي ضمان لأمن وسلامة القوافل التجارية.

- كان البدو في المناطق الليبية يضطرون أحيانا إلى التوغل إلى الجنوب بسبب الخلاف بين الولاة العثمانيين أو بسبب الخلاف بينهم، فأراد ابن السنوسي أن يكون مأوى لهؤلاء الهاربين.

- ازدياد العداوة بين علماء القاهرة والعثمانيين بسبب أفكار ابن السنوسي، فأراد الابتعاد عن الساحل والتوغل في الصحراء.

- خوفه من استيلاء الصليبيين على السواحل، فاختار الابتعاد إلى الجنوب داخل الصحراء بحيث يكون بعيداً عن

قبضتهم (الصلابي، 2008: 68).

كانت الجغبوب آنذاك مأوي للصوص وقطاع الطرق ولا تستطيع القوافل عبورها بسهولة، فلما وصل إليها ابن السنوسي سنة 1859م بنى فيها زاويته الكبرى، فصارت مهد أمان، ومركز عبادة، فاستنبط العيون، وغرس الأشجار، ووسع البنيان، فهي مكان استراتيجي بعيد عن مراقبة الأوروبيين، وبعيد أيضاً عن قبضة العثمانيين، وهي على خط الحج الرئيسي القادم من شمال وغرب أفريقيا عبر مصر (رماد، 2000: 48).

توفى مؤسس الحركة السنوسية الشيخ محمد علي بن السنوسي بعد حياة حافلة بالعطاء والدعوة إلى الله، ففكر سلفه وزعيمها الجديد محمد المهدي الانتقال إلى الكفرة، فشرع في تنفيذ خطة الانتقال، فجمع الإبل، والأمتعة الضرورية، وجهز الأدلاء، وخبراء الطرق، وعين الإمام محمد المهدي مرافقيه في سفره، ففي 22 من شوال 1312 هـ اجتمع جميع سكان الجغبوب للوداع، وألقي فيهم خطبة ذكر فيها نصائح وإرشادات، ثم ركب واتجه نحو الكفرة، وكان في وداعه الأحباب والمشيعين الكبار في مقدمتهم أحمد الريفي، ومحمد عابد السنوسي، وأبي يوسف مقرب، ومحمد المدني وغيرهم من كبار المشيعين لقافلته، وكان من ضمن المرافقين للإمام محمد المهدي السنوسي في رحلته إلى الكفرة أحمد البسكري، أحمد التواتي، وأحمد الجروالي، أحمد المثني الخدامسي، ومحمد السني وغيرهم من كبار الإخوان. ولما بلغ الإمام واحة الكفرة تلقته قبيلة الزوية والمجابرة ومن جاورهما من القبائل الصحراوية. وكان في استقباله أكثر من ثلاثة آلاف رجل وسط جو من الابتهاج، وبودلت الخيول وأطلق الرصاص حتى قتل يونس الرويعي رجلاً من قبيلة الزوية عن طريق الخطأ، فنادي شيوخ القبائل أتباعهم، بأن لا يترك الاحتفال من أجل موت أحدنا، وأن القاتل في مأمن إكراماً للإمام. وهذا يدل علي احترامهم الشديد لهذا القائد العظيم رغم اهتمامهم بالثأر. كما قرر شيوخ القبائل أن يتقدموا بهدية إلى الإمام المهدي بمناسبة قدومه إليهم، والهدية هي التسامح فيما بينهم والتنازل عن حقوقهم وعن ثلث ممتلكاتهم وقفاً للحركة السنوسية من نخيل وبساتين وأراض عن طيب خاطر، وشرع الإمام في بناء زاوية التاج، فأصبحت بذلك الكفرة هي العاصمة الفعلية للحركة السنوسية، فحُفرت الآبار وزرعت البساتين، وانتعشت الحياة الاقتصادية وأنت إليها الوفود من كل حدب وصوب حتى ضاقت بهم الأرض بما رحبت، فحرص الإمام علي أن تكون الكفرة ميداناً يقود منه حركة الإسلام إلى مجاهل أفريقيا جنوب الصحراء وذلك من أجل قطع الطريق أمام الفرنسيين الزاحفين نحو المنطقة، فعمل علي توطيد العلاقات بينه وبين مملكة وداي التي كانت علاقاتها جيدة مع الحركة السنوسية منذ عهد والده، حيث طلب منه سلطانها السلطان يوسف أن يوفد المهدي أحد كبار شيوخ السنوسية كمندوب إلى أبشه فارسل إليه محمد عبد الله السني فوطد نفوذ السنوسية في وداي (رماد، 2000: 240 - 243). وبعد وفاة شقيقه محمد الشريف سنة 1313هـ، أرسل الإمام محمد المهدي في طلب العائلة من الجغبوب إلى الكفرة وانتقلت جميع الأسرة والمريدين إلى الكفرة (شكري، 2005: 12). ومن الكفرة كان الإمام المهدي يرسل البعثات الاستكشافية إلى الصحراء ويحفر الآبار، ويمهد الطرق وكانت تلك الاستعدادات تجري لاكتشاف موقع جديد للحركة، وبعد أربع سنوات من مكوثه في الكفرة فكر في الانتقال إلى منطقة قورو.

انتقال الحركة السنوسية من الكفرة إلى قورو:

هناك اختلاف حول أسباب انتقال الحركة السنوسية من البيضاء إلى الجغبوب، وهناك اختلاف أيضاً في دوافع انتقال الحركة من الجغبوب إلى الكفرة، إلا أن الاختلاف الذي دار بين المؤرخين حول انتقال الحركة من الكفرة في جنوب شرق ليبيا إلى قورو شمال تشاد كان أوسع من ذي قبل:

-يرى بعض المؤرخين أن انتقال الحركة من الكفرة إلى قورو كان لتجنب الاحتكاك بالدولة العثمانية.

-وهناك رأي آخر يرى أن انتقال الحركة من الكفرة إلى قورو كان بدافع نشر الإسلام بين القبائل الوثنية في منطقة السودان الأوسط.

والرأي الثالث يرى أن الدافع الحقيقي لانتقال الحركة من الكفرة إلى قورو كان بدافع التصدي للفرنسيين الذين بدأوا يسيطرون على منطقة حوض بحيرة تشاد ويهددون مصالح الحركة السنوسية والدعوة الإسلامية في الجنوب (الصلابي، 2008: 251). والراجح هو الرأي الأخير بدليل أن الحركة بعد وصولها إلى منطقة قورو بدأت في إنشاء عدد من الزوايا داخل حوض بحيرة تشاد، مثل زاوية بئر علالي، وزاوية عين جلكة، ووجانها الكبير ووجانها الصغير. كما بعث محمد المهدي عدداً من أتباعه المراقبة التحركات الفرنسية مثل إرسال محمد البراني الساعدي وبو عقيلة، وإرسال عدد من الرسل إلى زعماء الممالك لتوحيد جهودهم ضد الاستعمار الفرنسي في المنطقة. وقد أكد هذا الرأي كل من عبد الرحمن عمر الماحي في كتابه تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال، والصلابي في الثمار الزكية للحركة السنوسية.

غادر الإمام محمد المهدي الكفرة في 1317هـ ورافقه عدد من أفراد أسرته وكبار الإخوان، وشيوخ الزوايا، وأعيان القبائل، وكان عدد مرافقيه من الرجال قد بلغ 1066 رجلاً واستغرقت الرحلة من الكفرة إلى قورو شهرين تقريباً. وبمجرد وصوله إلى منطقة قورو أرسل القائد محمد البراني إلى زاوية بئر علالي لنبذ الخلافات بين القبائل وتوحيد صفوفهم لمجابهة الفرنسيين.

دور الحركة السنوسية في مقاومة الاستعمار الفرنسي:

مقاومة رجال السنوسية للفرنسيين في كانم بالتعاون مع سكان المنطقة:

واجهت القوات الفرنسية خلال توجهها نحو كانم مقاومة عنيفة، وقد شاركت في هذه المقاومة كل القوى السياسية والشعبية، حيث كانت الأوضاع في المنطقة متدهورة قبل مجيء الفرنسيين نتيجة للفراغ السياسي الذي كانت تعيشه منذ غزو رابح لها، وإسقاطه للحكم فيها. وعلى الرغم من أن كانم لا تمتلك جيشاً منظماً في تلك المدة، إلا أنها لم تستسلم للفرنسيين.

لم تكن بداية المقاومة منظمة، بل كانت كل فرقة أو منطقة تقوم بالدفاع عن نفسها بمفردها، وقد وقع أول صدام بين أهالي كانم والقوات الفرنسية في منطقة (ركرك) التي لا تبعد كثيراً عن مواقع الفرنسيين، حيث خرج سكانها لملاقاة الفرنسيين بالأسلحة البيضاء (رماد، 2000: 50).

أهم المعارك ضد الفرنسيين:

1- معركة انقوري:

وقعت هذه المعركة بين أهالي منطقة أنقوري والقوات الفرنسية، حيث استطاع أهالي المنطقة من خلال هذه المعركة منع الفرنسيين من دخول منطقتهم، واضطرت القوات الفرنسية على إثر تلك المعركة أن تطلب المدد، فجاءت نجدة فرنسية بمساندة الخليفة جراب الذي تحالف مع الفرنسيين ضد بني جلدته، وعلى الرغم من الفارق في العتاد والتدريب، إلا أن أهالي أنقوري صمدوا رغم قلة عددهم وأسلحتهم البدائية. وبعد معركة دامت ثلاثة أيام تمكن الفرنسيون من احتلال المدينة وحرق أشجارها المثمرة، وطمر آبارها، وتشريد أهلها، وفي محاولة يائسة قامت القوات الفرنسية بمطاردة القوات الوطنية، وتمكنت من مقتل المجاهد خليفة حاجي حليف غيث عبد الجليل شيخ أولاد سليمان في كانم، وهو الخصم اللدود للخليفة جراب حليف الفرنسيين، مما تسبب من قمع القوات الفرنسية لمقاومة عبد الجليل وأنصاره، أو التحالف معه، أوقفت عملياتها الحربية في كانم مؤقتاً وانسحبت باتجاه (قائلفي)

حيث التقت بالحملات الأخرى وتحركت إلى كسري حيث التقت بقوات رابح (رماد، 2000: 63).

لقد ظنت القوات الفرنسية بأن المعاهدات التي وقعتها مع بعض الأهالي المتحالفين معها ستكون ضماناً لنجاحهم في السيطرة على المنطقة، لكن في الحقيقة لم تكن إلا مجموعة قليلة قد تحالفت معهم، والقوى الحقيقة للمقاومة في كانم كانت تتمثل في القبائل الليبية المتواجدة هناك. بقيادة غيث بن عبد الجليل وحلفائه من القبائل التشادية، يضاف إليها قوة الحركة السنوسية بقيادة البراني التي ارتكزت في منطقة قرو (الحنديري، 1998: 82).

أعطى انسحاب القوات الفرنسية من كانم وانشغالها بالقضاء على رابح المزيد من الوقت للمقاومة لتنظيم صفوفها، واستطاع غيث عبد الجليل أن يكوّن جيشاً من قبائل القذاذفة وورفلة والمغاربة والقرعان والطوارق تقدر قواته بنحو خمسة آلاف مقاتل، بالإضافة إلى وصول قائد الحركة السنوسية البراني الساعدي مبعوثاً من قبل محمد مهدي السنوسي، واستقر في منطقة قرو وذلك لقيادة زاوية بئر علالي والسعي إلى نبذ الخلاف بين المتخاصمين في المنطقة لتوحيد كلمتهم ضد الغزاة الفرنسيين (حلولو، 2021: 95). وبعد مقتل رابح مباشرة؛ صدرت الأوامر للقوات الفرنسية بتنظيم الإقليم العسكري لمنطقة بحيرة تشاد، والسيطرة على بقية أجزاء البلاد، وفي نفس الشهر تم تعيين العقيد جورج ماتييه ديستاف قائداً أعلى للقوات الفرنسية، ومفوضاً للحكومة الفرنسية بالإنابة، في محميات تشاد مكان إميل جانتي الذي غادر البلاد، فوصل ديستاف فورت لامي في يوليو عام 1901م، حيث قاد حربًا ضد فضل الله بن رابح الذي كان يسيطر على أجزاء كبيرة من برنو في تلك المدة، وتمكن من القضاء عليه في أكتوبر من نفس العام، وبمجرد القضاء على فضل الله بن رابح تحرك مع قواته نحو الشمال والشرق لضم ما تبقى من أراضي تشاد فقام بجولة تفقدية في بعض المدن، وفي أثناء جولته أعطى الأوامر للكابتن ميلو للقيام بجولة في كانم، من أجل معرفة الأحوال فيها، ومباغتة المقاومة الوطنية والاستيلاء على زاوية بئر علالي (رماد، 2000: 67).

تقدم النقيب ميلو بقواته باتجاه كانم في يوم 9 / 11 / 1901م واصطدم مع الحركة السنوسية في بئر علالي بقيادة غيث بن عبد الجليل، وبعد معركة عنيفة قتل النقيب ميلو وعدد كبير من جنوده و انهزموا شر هزيمة، وقد وصف أحد الضباط الفرنسيين الذين اشتركوا في هذه المعركة حالة الجنود الهاربين من المعركة، وهو النقيب (بوبار) بقوله: « لقد جعل العطش الجنود الفرنسين كالمجانين يتجاذبون في الآنية، وتركوا جثة النقيب ميلو فاختفى الجواد الذي يحمل الجثة ولم نجده إلا بعد شهر ونصف» (رماد، 2000: 68).

زرعت هذه الحالة الخوف والرعب في نفوس الجنود الفرنسيين، وأصيب العقيد ديستاف القائد العام للقوات الفرنسية ومفوض الحكومة بالصدمة من جراء الهزيمة المدوية، واستسلم للمرض الشديد، مما اضطره إلى العودة إلى فورت لامي، وترك القيادة للقائد تيتار، فوجد الفرنسيون أنفسهم منذ السنوات الأولى لوجودهم في تشاد في صراع مع عدو قد يكون أقل مهارة من رابح على المستوى العسكري، ولكنه عدو أكثر ضراوة على المستويين النفسي والتضحية، عدو يشعر بالعزة والطمأنينة وهو يدافع عن مبادئه وأرضه ومصالحه القومية، مما جعل المقاومة شديدة في الجهة الشمالية والشرقية علي حد سواء (رماد، 2000: 68).

سقوط بئر علالي في أيدي القوات الفرنسية:

في صبيحة يوم 20 يناير 1902م عند الساعة التاسعة بدأت القوات الفرنسية هجوماً مكثفاً على زاوية بئر علالي في كانم وكانت معركة شرسة استبسلت فيها المقاومة بقيادة البراني، واستمرت المعركة زهاء ثلاث ساعات متواصلة تكبد فيها الجانبان خسائر فادحة، وبعد مقاومة عنيفة تمكن الفرنسيون من الاستيلاء على الزاوية، واستشهد الكثير من المجاهدين، مما دفع زعيم الحركة أحمد الشريف إلى استبدال محمد البراني الساعدي بمحمد

بو عقيلة الزوي، وتولى البراني قيادة عين جلكة في شمال تشاد، فنظم بو عقيلة الجيش لاستعادة زاوية بئر علالي، وشن هجوماً مباغتاً على الفرنسيين بتاريخ 1902/2/4م ولكن القوات الفرنسية تصدت له، وأجبرت قواته على التراجع وعاودوا الهجوم في اليوم الثاني، وجرت معركة طاحنة في كلا الطرفين وبلغ عدد قتلى الحركة السنوسية ثمانين قتيلاً من بينهم قائدهم محمد بو عقيلة (الماحي، 1999: 4).

يذكر القائد فوكي أحد الضباط الفرنسيين المشاركين في المعركة أن عدد قتلى رجال المقاومة بلغ 150 قتيلاً، و 12 من القوات الفرنسية و 15 جريحاً. ويذهب ديستاف في تقريره عن المعركة بأن عدد القتلى من القوات المقاومة ما بين 200 – 300 قتيل (حلولو، 2021: 101).

قد يكون هذا العدد ليس صحيحاً، وإنما هو على سبيل الحرب الإعلامية والنفسية ورفع تقارير إلى الجهات الرسمية بهدف إضفاء صفة الانتصار على أنفسهم. وبعد سقوط بئر علالي على يد القوات الفرنسية انسحبت قوات الحركة السنوسية بقيادة محمد البراني الساعدي إلى منطقة منقا، واتخذت من المرتفعات الرملية معسكراً لها على مقربة من مواقع القوات الفرنسية (حلولو، 2021: 101). ولم تجرؤ القوات الفرنسية بعد هذه المعارك التي دارت بينها وبين قوات الحركة السنوسية في كاتم على التوغل نحو الشمال، فقد انحصرت في إقليم كانم مدة خمس سنوات كاملة من عام 1907-1902م.

خلال هذه المدة واصلت قوات الحركة السنوسية مع القوات الوطنية هجماتها على القوات الفرنسية في كانم، إلا أنها اعتمدت في هجماتها على العمليات الليلية السريعة الخاطفة، ففي عام 1904م قامت قوات الحركة السنوسية بهجوم على القوات الفرنسية في بئر علالي، واستولوا على بعض الجمال التي كان الفرنسيون يستخدمونها في تنقلاتهم، وفي نفس العام قام عبد الله الطوير بضربات ليلية موجعة ضد القوات الفرنسية في زقي (الحنديري، 1998: 83).

لقد لعبت قوات المقاومة الوطنية بالتعاون مع قوات الحركة السنوسية في كانم دوراً كبيراً في تأخير احتلال منطقة بوركو إنيدي في شمال تشاد خاصة، ومنطقة حوض بحيرة تشاد عامة، كما أسهمت المقاومة في رفع معنويات القوى الوطنية في منطقة وداي وفي مختلف مناطق تشاد الأخرى.

معركة وادي كجا 4 يناير 1910:

أرادت القوات الفرنسية عزل السلطان دود مرة من أنصاره، حتى لا تتمكن القوة المتحالفة ضد الاحتلال الفرنسي من التواصل فيما بينها، فتنبه السلطان دود مرة للمخطط الفرنسي بغرض عزله عن منطقة دارفور، فقام بهجوم مفاجئ على القوات الفرنسية الزاحفة نحو الشرق بالتنسيق والمشاركة السلطان مع تاج الدين سلطان الجنينة، فقام بهجوم مباغت على القوات الفرنسية الزاحفة نحو المواقع الدفاعية، وكانت القوات الفرنسية بقيادة النقيب فنشك، فاصطدمت بقوات دود مرة المتحالفة مع تاج الدين بالقرب من وادي كجا في 4 من يناير 1910م (حلولو، 2021: 102). وأوردت جريدة أنجمينا الجديدة في مقالٍ بالعدد 42 أنه قتل في هذه المعركة النقيب فنشك قائد العمليات العسكرية في منطقة وادي كجا والملازمين بيرا وويلاك وباسير، والرقيب برانجي ومائة قناص وثمانين جندياً متعاوناً، ونجا ثمانية جنود فقط من الفرنسيين والمتعاونين معهم ليصلوا إلى أبشه ويبلغوا بالهزيمة النكراء التي منيوا بها (قاروند يجارمة، 2009: 10). وقد كان لهذه الهزيمة صدىً هائلاً في فرنسا، حتى أنها دفعت بالبرلمان الفرنسي إلى التصويت بالموافقة على الاعتمادات المالية اللازمة لتدعيم القوات الفرنسية في حوض بحيرة تشاد، فارتفع عدد أفراد القوات الفرنسية في تشاد من 1800-1200 موزعين على كتيبتين كل كتيبة مكونة من أربعة سرايا،

وكان لهذه الهزيمة أثر إيجابي على المواطنين، وقوات دود مرة والسلطان تاج الدين، والحركة السنوسية لأنها أول هزيمة كبيرة يتعرض لها الفرنسيون منذ مجيئهم إلى تشاد، ونتيجة لهذا الانتصار الذي حققته المقاومة، انضمت إليها كل من دار سلا ممثلة في شخصية السلطان بخيت وعدد كبير من المواطنين، وقد بعث السلطان دود مرة ممثل الحركة السنوسية كمبعوث إلى السلطان علي دينار ليتوسط لهم في حل الخلافات بينهم، والتعاون ضد الغزو الفرنسي لأراضيهم، فوصل محمد السني إلى الفاشر وحصل على المصالحة بين دود مرة وعلي دينار (حلولو، 2021: 75). تحت رعاية الحركة السنوسية وضمانتها فاشتركت قوات علي دينار مع قوات دود مرة وتاج الدين، وسيطرت على منطقة دار تاما إلا أن أسلحتهم كانت بدائية في مواجهة الترسانة الفرنسية، لذا تمكن النقيب شافلو والملازم حاميل من التصدي لقوات المقاومة في 7 من أبريل في وادي قريدا (حلولو، 2021: 75). وفي 8 من أبريل تمكن شافلو من إخراج دود مرة من المدرج الصخري بكيقا، الذي كان يحتمي به، فاشتدت المعارك بين الفرنسيين والمقاومة في دار المساليت، مما جعل المقدم مول يطلب من الحاكم العام الفرنسي في برازافيلا لمساعدته، فتوجه الحاكم العام بنفسه إلى دار مساليت على رأس 300 جندي ومدفعين لوقف المقاومة التي اشتدت وطأتها عليهم وذلك بوقوف السلطان علي دينار، والسلطان تاج الدين، مع المقاومة التشادية بدعم لوجستي من الحركة السنوسية ومباركة من الدولة العثمانية (الماحي، 1999: 14).

اتجاه الفرنسيين نحو الشمال مرة أخرى بعد استسلام دود مرة:

في أثناء مواجهة القوات الفرنسية مع المقاومة في وداي غضت القوات الفرنسية الطرف عن تواجد الحركة السنوسية في دار كوتي بقيادة محمد السني بسبب حشد كل قواتها وتركيزها على القضاء على المقاومة في وداي، وفي تلك الأثناء نجح السيد محمد السني قائد الحركة السنوسية في دار كوتي في تشكيل جيش قوي، وأخذ يهاجم القوات الفرنسية إلى جانب السلطان دود مرة والسلطان تاج الدين والسلطان علي دينار، فقرر النقيب مودي قائد حامية أنديلا الهجوم عليه في فبراير 1911م، وبعد معارك ضارية قتل محمد السني وابنه آدم ومحمد حفيد رابح المتبقي وأربعة من رؤساء الفرق العسكرية ونحو مئتي جندي (الماحي، 1999: 146). بعد المحاولة الفاشلة التي قام بها أبو عقيلة لاستعادة بئر علالي انسحبت قوات الحركة السنوسية بقيادة محمد البراني الساعدي من كانم باتجاه بركو حيث استقرت في زاوية عين جلكة شمال غرب فايا، وشرع البراني في إعادة تنظيم المقاومة وقسمها إلى عدة زوايا.

-زاوية بسكرة بقيادة صالح بوكريم؛ وتتكون من المجابرة والقذاذفة والقرعان وأولاد سليمان والورفلة.

-زاوية عين جلكة بقيادة محمد البراني الساعدي؛ وتتكون من المجابرة الزوية القرعان والطوارق.

-زاوية فايا مكونة من القرعان وبعض القبائل الأخرى بقيادة عبد الله الطوير.

وكانت هذه الزوايا كلها بقيادة أحمد الشريف الزعيم الجديد للحركة السنوسية، وتدار عن طريق مستشاره أحمد الريفي وبهذه الفرق استطاعت السنوسية تنظيم صفوفها، وقد اختارت أسلوب حرب العصابات لاستنزاف القوات الفرنسية، إذ رأت أن المواجهة المباشرة لا تنفع مع القوات الفرنسية التي تمتلك ترسانة قوية، وبهذه الطريقة زرعت الخوف والرعب في نفوس الفرنسيين (حلولو، 2021: 85).

موقف الدولة العثمانية من دعم السنوسية للمقاومة في تشاد ضد الفرنسيين:

قبل وصول المستعمرين الفرنسيين، حافظت الدولة العثمانية على علاقات دبلوماسية مع ممالك السودان الأوسط. وكان سفيرها يقيم في مملكة وداي، وتحديدًا في مدينة أبشه، التي يُخلد ذكراها حي يُدعى جنينة ترك، أي «حديقة الأتراك». وقبل الاحتلال الفرنسي لتونس عام 1881م، اتخذت الدولة العثمانية تدابير أساسية

لتوسيع نفوذها نحو شمال تشاد، بهدف تأمين الاتصال بممالك وسط إفريقيا ومواجهة الهيمنة الفرنسية في المنطقة. كما سعى يوسف باشا القرمانلي إلى التوسع في وسط السودان من خلال الوسائل العسكرية والدبلوماسية من خلال استهداف بعض القبائل خارج نطاق ولايته، على الرغم من أن هذه المساعي أثبتت فشلها في النهاية. انخرط أحمد الشريف، زعيم الحركة السنوسية، في مواجهات متعددة مع الدولة العثمانية، وخاصة ضد الحزب التركي الجديد (الشباب الأتراك) الذي تولى السيطرة على الإدارة العثمانية في ليبيا خلال تلك المدة. ومع ذلك، أدرك أحمد الشريف أن الوقت قد حان لتسوية الخلافات مع الإمبراطورية العثمانية والتحالف معها في صراعها ضد فرنسا (شعبان،2013: 290). فأرسل وفداً إلى إسطنبول ليؤكد ولاءه للسلطان العثماني، كما قام بالتواصل مع المسؤولين الأتراك في ليبيا بضرورة التدخل إلى جانب الحركة السنوسية في حروبها ضد القوات الفرنسية في تشاد ومدهم بالمؤن والعتاد (شعبان،2013: 290).

أدركت فرنسا أن المقاومة في وداي؛ كانت من تدبير الأتراك ومن خلال الحركة السنوسية. ونتيجة لذلك، أرسلت الحكومة الفرنسية رسالة احتجاج إلى الباب العالي في إسطنبول، معربة عن مظالمها فيما يتصل بالليبيين. رعايا الإمبراطورية العثمانية. الذين سبق لهم أن ساعدوا السلطان دود من وداي أثناء صراعه مع الحكومة الفرنسية. وفي رسالتها، أكدت الحكومة الفرنسية أن 417 عربياً شاركوا في الهجوم على القوات الفرنسية في قرية دروتي في عام 1910 م، مما أسفر عن مقتل المقدم مول، قائد قوات الحملة الفرنسية، فضلاً عن حاكم تشاد وقواته. ولوحظ أن المهاجمين تلقوا تدريبات في طرابلس وبنغازي، وتجمعوا في الأراضي العثمانية على بعد 150 متراً فقط من طريق مرزق، وكل ذلك بوعي من متصرّف فزان. وقد طلبت الحكومة الفرنسية من الباب العالي المعلومات ذات الصلة اللازمة لاتخاذ إجراءات عقابية ضد المسؤولين. ورداً على ذلك، أشار الباب العالي إلى أن دخول الأسلحة محظور، وأكد أن الأسلحة المستخدمة في وداي من أصل فرنسي. وأشار كذلك إلى أن فرنسا فشلت في منع تهريب أسلحتها، وبالتالي يتعين عليها ملاحقة أولئك الذين سهّلوا نقل الأسلحة إلى المقاومة في وداي ومحاسبتهم (شعبان،2013: 291).

الخاتمة:

إن الصلات الليبية التشادية صلات قديمة ترجع إلى عصور تاريخية قديمة، وعلى الرغم من وجود الصحراء التي شكلت حاجزاً طبيعياً بين شمال أفريقيا، وأفريقيا جنوب الصحراء، إلا أنها لم تقف حائلاً يمنع التواصل بين البلدين.

ازدادت هذه العلاقات بين الإقليمين متانة ورسوخاً بعد انتشار الإسلام في الشمال الأفريقي ومنه انتقل إلى منطقة كوار في السودان الأوسط في وقت مبكر من بدء الدعوة الإسلامية، وقد اجتازت القوافل الصحراء الأفريقية جيئة وذهاباً تحمل السلع والبضائع إلى منطقة حوض بحيرة تشاد. وفي القرن التاسع عشر هاجرت بعض القبائل الليبية واستقرت في الشمال التشادي في منطقة كانم، وكانت هجرات هذه القبائل نتيجة لسوء الإدارة العثمانية التي حكمت ليبيا في ذلك الوقت، واستخدامها الشدة مع هذه القبائل في جمع الضرائب، وقد تداخلت هذه القبائل وانصهرت مع القبائل التشادية، ولما تأسست الحركة السنوسية في ليبيا وانتقلت إلى تشاد نتيجة لبعض العوامل والظروف، واتخذت من منطقة فورد في الشمال التشادي مركزاً لها كانت هذه القبائل المهاجرة خير معين وسند لها في نشر الدعوة الإسلامية وانتشرت الزوايا السنوسية في منطقة الشمال التشادي تنشر الوعي الديني، وتحفر الآبار، وتقدم الخدمات للناس، وبعد مجيء الاستعمار الفرنسي إلى منطقة تشاد وقفت هذه القبائل ضد التوغل الفرنسي في البلاد وقاومته وخاضت عدة معارك ضده جنباً إلى جنب مع المواطنين التشاديين.

النتائج:

خلصت الدراسة إلى عدة نتائج من أهمها:

-إن انتقال الحركة السنوسية إلى الشمال التشادي لم يأت من فراغ، وإنما لمعرفتها بوجود المهاجرين الليبيين في تشاد الذين وصلوا في مراحل مختلفة حسب الظروف التي دفعتهم للهجرة، واختلاطهم بالسكان المحليين، ومن أهم القبائل التي هاجرت إلى حوض بحيرة تشاد قبيلة أولاد سليمان، وورفلة والمغاربة، والزوية والمجابرة، والقذاذفة، وغيرها من القبائل الذين استقر بهم المقام في مختلف مناطق تشاد، وعندما جاءت السنوسية في بادئ أمرها وجدت هذه القبائل واعتمدت عليها في مواجهتها للاستعمار الفرنسي.

-استطاعت الحركة السنوسية أن تربط بين شعوب أفريقيا جنوب الصحراء وشمالها وقطعت الحواجز الطبيعية بتعمير الصحراء الواقعة بين المنطقتين بإقامتها للزوايا وتعميرها للأرض بحفر الآبار وإنشاء المزارع والعمران.

-استطاعت الحركة السنوسية توحيد جهود المقاومة الوطنية للوقوف في وجه المستعمر الفرنسي بالتنسيق بين مملكة وداي والمقاومة في كانم ومملكة دارفور وسلطنة المساليت.

-نجحت الحركة السنوسية في تأخير احتلال الفرنسيين للأراضي التشادية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

-دعمت الحركة السنوسية المقاومة الوطنية بالسلاح والرجال في كل من كانم ووداي، ومساعدتها لنجل رابح.

-وحدت الحركة السنوسية القبائل الليبية المتناحرة بسبب الثأر والخلافات الشخصية من خلال الوقوف في وجه المستعمر الفرنسي كما حدث بين القبائل العربية في كانم.

التوصيات:

-إجراء المزيد من الدراسات حول دور القبائل الليبية التي هاجرت إلى تشاد في التصدي للزحف الفرنسي وتوغله في الأراضي التشادية في ضوء الوثائق الفرنسية التي لم يتيسر للدراسة الحصول عليها.

-إجراء دراسة ميدانية عن الواقع المعاصر لهذه القبائل الليبية التي لا تزال حتى تاريخ اليوم تنتشر في الشمال التشادي وبعض المناطق الأخرى، ومدى مساهمتها في الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية في تشاد.

المراجع:

1.بن علي، عبد المالك عبد القادر (1966). **الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية**. مكتبة دار الجزائر. الجزائر.

2.التونسي، م. ب. ع. (2001). **رحلة إلى وداي** (ع. ب. م. أحمد، محقق). دار منكوب. الخرطوم.

3.الحشائشي التونسي، م. ب. ع. (1895). **رحلة الحشائشي إلى ليبيا-جلاء الكرب عن طرابلس الغرب (1855-1912م)** تقديم وتحقيق على مصطفى المصراتي 1965. دار لبنان للطباعة والنشر. بيروت.

4.الحنديري، س.ع. ر. (1998). **تطور الحياة السياسية في تشاد**. مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. طرابلس.

5.الحنديري، س. ع. ر. (1983). **العلاقات الليبية التشادية**. مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. طرابلس.

6.حلولو، الطيب إدريس (2021)، المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي في تشاد (1894-1920)، **عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية**، القاهرة.

7.رماد، م. أ. ح. (2000). **دور الليبيين في مقاومة الاحتلال الفرنسي في تشاد 1899-1913** (بحث غير منشور). جامعة الملك فيصل.

8.شعبان، م. ع. (2013). **أفريقيات: دراسات وبحوث في التاريخ الأفريقي الحديث والمعاصر**. دار المعرفة الجامعية. القاهرة.

9.شكري، م. ف. (1948). **السنوسية: دين ودولة**. دار الفكر العربي. القاهرة.

10.الصلابي، ع. م. (2001). **الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط**. العربية للنشر والتوزيع. القاهرة.

11.الصلابي، ع. م. (2008). **الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا**. مكتبة الصحابة. الشارقة.

12.الصلابي، ع. م. (2011). **تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا** (ط. 4). دار المعرفة. بيروت.

13.قارو ند يجارمة (2009). مقاومة السلطان دود مرة للفرنسيين. **جريدة أنجمينا الجديدة**. العدد 42 السنة 2009، ت: محمد الهادي عبد الرحيم. ص 10.

14.الماحي، ع. ع. (1990). **الدعوة الإسلامية في أفريقيا: الواقع والمستقبل**. دار الثقافة والإعلام. الشارقة.

15.الماحي، ع. ع. (1999). **تشاد من الاستعمار وحتى الاستقلال**. دار الثقافة والإعلام. الشارقة.

16.يوسف، س. (2000). **فجر الحركة الإسلامية المعاصرة (الوهابية - السنوسية - المهدية)**. العربية للنشر والتوزيع. القاهرة.